



ركب الحاج الناصري ، زاوية متنقلة .

ذ. أحمد عمالك *

استطاع الناصريون أن يضطلعوا بتنظيم ركب خاص بهم ، بفضل الحظوة التي تسنموها ، الأمر الذي ساهم في تزكية مكانتهم خارج المغرب كذلك. فمتى تأسس هذا الركب ؟ وما هي الأدوار التي اضطلع بها شيوخ الناصريين على طول الطريق إلى الحج ؟ وكيف يمكن رصد مظاهر تلك الأدوار في أثناء إقامته وظعنه ؟.

قبل طرق باب هذا الموضوع يمكن أن ندلي بملاحظة تندرج في سياق منهجي بدهي. ذلك أن كتب الرحلات الحجازية، ومنها رحلات الناصريين،تكون المصدر الأساس الذي رجعنا إليه،لاسيما وأنها تتكامل فيما بينها. فمن خلال تلك الرحلات توصلنا إلى وصف هيأة الركب ، وتتبع طريقه وعدد المراحل التي يقطعها في أثناء ذهابه وإيابه ، وأهم المنازل التي ينزل بها الحجاج،إما بقصد الراحة أو المتاجرة. وأفادتنا أيضا عن أحوال سكان تلك المنازل وتقاليدهم ومستوياتهم العلمية والحضارية،ناهيك عن سككهم وطرق كسبهم. بعد هذه الملاحظة ننعطف إلى صلب الموضوع، لنحاول الجواب عن السؤال الأول . من الراجح أن أول ركب نظمه الناصريون ، كان في سنة 1660 / 1659 - 1070 (1) ، بعدما كان أهل درعة يحجون مع الركب السجلماسي(2) . ويبدو أن استقلال الناصريين بركب خاص بهم قد أضحى ضرورة ملحة ، لاسيما بعد أن بدأ صيت زاويتهم يعلو ، في مختلف جهات بلاد المغرب...

وعلى الرغم من هذا الترجيح ، فإننا لا نستطيع أن نجزم بأن الشيخ امحمد ابن ناصر قد توجه في تلك السنة على رأس ركب خاص به ، مستقل عن الركب السجلماسي ، اعتمادا على العدد الكبير من الحجاج الذين رافقوه(3) .

* أستاذ باحث بكلية الآداب والعلوم الإنسانية ــ مراكش.

على أن الحال قد تغير في أثناء حجته الثانية ، وهي الحجة الأولى لابنه أحمد الخليفة، والتي قضياها معا في سنة (4)1665 / 1076. وأفادت إشارة وردت عند أحمد بن خالد الناصري أن أهل درعة أضحى لهم ركب خاص. ففي حديثه عن حجة الشيخ أحمد الخليفة الثانية ، في سنة 1685 / 1096 ، قال :"وبات أي الركب، أول ليلة بالوادي المسمى بأسيف أزاغ، كما جرت به عادة ركب الحاج من أهل درعة"(5) . وكان أسيف أزاغ أول مرحلة في طريق الركب، يبيت بها الحجاج ، منتظرين أن يلتحق بهم أتباع الناصريين القادمون من مختلف الجهات. وأشار المصدر المذكور إلى أن عدد الحجاج الذين رافقوا الشيخ أحمد الخليفة، في تلك الحجة "لا يحصى" . ونستيقن من هذا الرأي ، إذا علمنا أن كتاب الرحلة الناصرية ، يفيد أنه صار لهؤلاء ركب خاص بهم. فقد أكد الشيخ أحمد الخليفة عند حديثه عن حصار طرابلس ، أن الركب الناصري شارك في الدفاع عن المدينة المحاصرة، فقال "ونحن وركبنا معهم مستهلين بالشهادة ،رافعين أصواتنا بالتكبير". وكان ذلك في أثناء حجته الثانية، سنة (6)1685 / 1096 . ولما مر بسجلماسة ، في حجته الثالثة ، سنة 1698 / 1109 ، ذكر في رحلته أن الركب السجلماسي توجه إلى المشرق ، قبل حلول ركب الناصريين بها ، بزمن غير يسير(7). بناءا على هذه القرائن نستخلص أن للناصريين ركبا خاصا بهم ، اعتاد مريدوهم وأتباعهم أن ينضموا إليه، فور الإعلان عن موعد انطلاقه. لكننا لا ندري هل كان هذا الركب منتظما أم لا ؟ وما يمكن أن نجزم به أنه ظل مستقلا عن الركب الفاسي،الذي كان هو الركب الرسمي.أي أن المخزن لم يكن يتدخل لتعيين أميره ، أو تزويده بجند لحمايته . ولعل هذا الاستقلال كان سببا في إقدام السلطان المولى إسماعيل على منع الشيخ الناصري من التوجه إلى الحج ، في سنة (8) 1707 / 1119 .وباستثناء هذا الحدث الذي يندرج في سياق خاص، فإننا لم نقف على أي تدخل في شؤون ركب الحاج الناصري ، طوال الفترات اللاحقة.

وقبل الحديث عن الأدوار التي اضطلع بها شيوخ الناصريين ، وأعمالهم طوال السفر، يبدو من المفيد أن نحدد أهم معالم الطريق التي كان ركب الحاج يسلكها. من خلال أشهر كتب الرحلات الناصرية، تمكننا من تتبع أهم مسالك الركب ، كما استطعنا ضبط مواقيت خروجه.

مواقيت انطلاق الركب :

ينطلق الركب من تامكروت فيما بين منتصف ربيع الثاني وأواخر جمادى الأولى. وهكذا فقد خرج ركب سنة 1685 / 1096، يوم 16 ربيع الثاني ، وركب سنة 1707 /1109 ، يوم 5 جمادى الأولى ــ مع العلم أنه منع. أما ركب عام 1709 / 1121 ، فقد غادر تامكروت يوم 24 جمادى الأولى(9). وهذا مما يدل على أن

الركب كان يقطع المسافة الفاصلة بين تامكروت ومكة المكرمة في مدة تنيف عن سبعة أشهر، وهي مدة أقصر مما يستغرقه في أثناء الإياب، حيث كانت تتعدى ثمانية أشهر في المتوسط. وقد تصل أحيانا إلى سنة كاملة. وهذا راجع إلى أسباب سنرجع إليها لاحقا. وللإشارة كذلك فإن يوم الانطلاق كان ، في الأغلب هو يوم الخميس ، لأنه ورد فيه حديث، كان شيوخ الناصريين يتيمنون به ، معتقدين أن ذلك من السنة(10). وفي اليوم الموعود يجتمع الحجاج خارج تامكروت، في مكان دعي بالأندر، حيث كانت تضرب لهم أخبية يقيم بها من يردون على الزاوية ، استعدادا للتشريق ، أو بعد عودتهم من الحج ، حتى يتسنى توديعهم أو المباركة إليهم. ويقع هذا المكان شمالي تامكروت(11).ويعتقد أواخر الناصريين أن الشيخ يوسف الناصري أعد منزلا لاجتماع الحجاج في المكان ذاته.

الجانب التنظيمي في الركب :

قبل انطلاق الركب يعين له أمير وقاض، وتقدم كل قبيلة رجلا(12) .يكون هؤلاء بمثابة "مجلس" الركب ، يمكن أن ينعقد للبث في بعض القضايا الشائكة التي تستوقف الحجاج، في بعض مراحل الطريق، مثل الوباء أو قطاع الطرق واللصوص، أو حين يضل بعض الحجاج. ونتيجة لتعرض ركب الحاج لبعض المخاطر، بضطر إلى كراء الأدلاء، وحمل السلاح للدفاع عن النفس.ولم يخف الرحالة انزعاجهم من تلك الظواهر. فتواترت نصائحهم لمن يجيئون من بعدهم ، بحمل السلاح والاستعداد للقتال. وفي ذلك يقول محمد بن منصور العامري :

واتخذ يا لبيب آلة حرب ربما عرضت لك الأعداء(13)

وفي السياق نفسه نورد ما نصح به أبو سالم العياشي تلميذه أحمد بن سعيد المجيلدي حين استنصحه فقال :"وخذ لنفسك ما تحتاج إليه من البارود ... والرصاص ... واتخذ لنفسك مدافع، فإنها في الطريق هيبة ، وأي هيبة..."(14). وقد كان الحجاج مضطرين إلى حمل السلاح ، بسبب تلك المخاطر ، لأن بعض مراحل الطريق إلى الحج، كانت مكامن للصوص وقطاع الطرق . ومن أشهر الأمثلة في هذا المقام ، توزر في تونس، وممر العقبة في صحراء سيناء. يقول أحمد الخليفة بشأن المرحلة الأولى :"وأما النهب بالسرقة والاختلاس ، فاحفظ مالك وما عليك ، من جميع الناس ، في جميع المواضع ،وخصوصا توزر ، فإنها أكثر بلاد الله سرقة وخطفا"(15). وأما بصدد المرحلة الثانية ، فيقول الخليفتي ــ على لسان أحد تلاميذ الشيخ أحمد الخليفة ــ :" لما وصلنا العقبة وجدنا فيها كثرة القطاع بجيش لا يحصيه إلا الله ، وجاء أمير الحاج للشيخ، فقال له يا سيدي : إن العقبة معمورة بالقطاع ، وخفنا على الحجاج وعلى أموالهم، انزلوا هنا حتى يدركنا أهل مصر..(16). من أجل ذلك نصح بعض كتاب الرحلات الحاج ألا يكثر من الأثقال ولا يحمل معه إلا أخف الأشياء وانفسها، كمسحوق الذهب ، وبعض التوابل ،مثل

الزعفران والشب ، أو العطر والسواك وغيرها (17) ، ممـــا لا يثـــير اللصـــوص . يقول العامري في السياق ذاته:

واتخذ يا فتـــى من العطر شيئا   رب وقت به يكون الشراء
ولا تكلـــف بسلعـــة إن فيهـــا   خطـــرا ومحنـــة وبـــلاء
بـــل دنانيـــر جيد من نضـــار   في حزامك حبـــذا الرفقاء(18)

وهكذا فإذا كان الحاج مضطرا إلى أن يعد للسفر الطويل عدته ، مـــن زاد ومـــال وغير ذلك ليذلل الصعوبات المادية ، فإن الرحالة ينصحه باجتناب الأثقال. وبعـــد التهيئ التنظيمي والإعداد المادي ، ينطلق الركب الناصري . فهل يمكن تقدير عـــدد الحجاج الذين يشاركون فيه ؟

من حيث العدد : يظهر منذ الوهلة الأولى أن الأمر عسير ، لأننـــا تتبعنـــا كـــل رحلات الناصريين التي وقفنا عليها فلم نتوصل إلـــى أي تقديـــر. علـــى أن تلـــك المصادر تتفق على كثرة المشاركين ، بالرغم عن أنها لا تذكر إحصـــاءات دقيقـــة. ومـــن ثم تفـــيد القرائـــن الواردة في ثنايـــا المصـــادر المشـــار إليـــها ، ببعـــض التصورات التقديرية.

يتحدث الشيخ أحمد بن ناصر عن نزول الركب ، بإحدى مراحل بلاد المغـــرب الأوسط ، فيقول :"ونزلنا المريجة بعد العصر ، ولم ينزل آخـــر الركـــب إلا بعـــد العشاء..."(19). وبصدد المرحلة التالية ، يقول :"ونزلنا بمسوار الريان قبل المغـــوب، ولم ينزل آخر الركب إلا بعد العشاء"(20). وإذا علمنا أن الرحلة كانت فـــي زمـــن الصيف(21)، فإن نزول الركب ، قد يستغرق حوالي خمس ساعات ، فـــي المرحلـــة الأولى ، وما يربو عن ساعتين ، على أقل تقدير ، في المرحلة الثانية. ولتأكيد مـــا ذهبنا إليه نذكر أن الركب نفسه نزل في أثناء عودته بحامة مطماطـــة ، بتونـــس ، فاستضافهم أحد مقدمي الناصريين هنالك ، وقدم إلى الحجاج واحدا وخمسين إنـــاءا من الطعام(22). وإذا قدرنا إناءا لكل عشرة أشخاص ، سنستنتج أن عدد الضيوف قد ينيف عن خمسمائة شخص ، عدا من لم يتمكنوا من حضور الطعـــام مثـــل الخـــدم والنساء. وهذه كلها قرائن تمكننا من أن نستخلص الأهمية العددية للركب. ومن ثـــم فلا نجازف إذا قررنا أن المشاركين في الركب الناصري ، كانوا يعدون بالمئين .

طريـق الركـب :

ينطلق الركب بعد صلاة الصبح ، فيجد السير، عبر تزي ـــ ن ـــ تـافيلالت ولا يتوقف إلا بعد أن يصل إلى أسيف أزاغ، حيث يبيت (23) .وفي اليوم التالي يتوجـــه رأسا إلى تافيلالت(24). وهنالك يقضي الحجاج بعـــض المـــآرب، ولاســـيما شـــراء الرواحل والقرب ، ويبيتون ليلتهم بما جن الغرفة ، وهي قريـــة تقـــع شـــرقي واد زيز،مقابلة لتابوعصـــامت (25). ومنها يظعنون ، ليؤمـــوا تلغمـــت، حيـــث اعتـــاد الركب أن يخيم، فيقدم أتباع الناصريين وتلاميذهم مـــن أيـــت عيـــاش والمنـــاطق

المجاورة، لأخذ الورد أو تجديد العهد بشيوخهم (26). ومنها يقصدون القنادسة، حيث توجد زاوية ابن أبي زيان الناصرية. فكان الركب يقيم بها يومين أو أكثر(27)، ثم يواصل الركب انعطافه نحو الشمال الشرقي. وبعد أن يمر ببشار ، يتوقف بفكيك حيث كانت لأهل البلدة مصاهرة مع شيوخ الناصريين (28) كما اشتهرت برخص الثياب، ولاسيما البرانس الرفيعة الجودة. يقول أبو مدين الدرعي:"واشتروا (أي الحجاج) بها ما يصلح بهم من الثياب والبرانس ، إذ لا موضع الكسوة فيه رخيصة منها..."(29).ومنها كان الحجاج يمتارون ما يكفيهم ودوابهم لثلاث مراحل. وقد اشتهر بنو عبد الجبار من بين الأسر، التي كانت لهم عناية خاصة بالركب الناصري. وتنعقد حول قصورهم سوق تجارية كبرى. يلتقي فيها تجار تافلالت وتوات وتلمسان(30). ثم يدخلون مجال قبائل حميان، وأهم مرحلة به قرية أبي سمغون، وهي أول مرحلة من بلاد المغرب الأوسط. يجمع الرحالة على أن تلك الجهات لم تكن تخلو من قتال ، وكان أهلها يقومون بقطع الطرق ونهب الحجاج (31)، لذلك كان الركب يضطر إلى الإقامة بها يوما وليلة ، على الأقل ، حتى يتأتى للحجاج أن يتأكدوا من سلامة الطريق.

وبعد أبي سمغون يجد الركب السير ، حتى يصل إلى عين ماضي ، حيث تلتقي طرق الركاب الحجية ، ولاسيما الركبين الفلالي والفاسي. وقد عرفت هذه البلاد رخص الغنم والإبل ، بسبب كثرتها (32).ومن عين ماضي يتجه الركب صوب بسكرة ، التي تبعد عن المرحلة السابقة بحوالي اثنتي عشر مرحلة ، بعد أن يتركوا واحات الأغواط ذات اليمين(33). ويفصل بين عين ماضي وبسكرة عدد من المراحل ، أشهرها واد الطرفة ثم وادي بوملول، ثم وادي دمت، فالتوميات. ويعتقد الحجاج أن هذه المرحلة ، هي منتصف الطريق بين فاس وطرابلس(34).

وأكبر مرحلة تلي التوميات، واد سيدي خالد الذي يعد أول بلاد الزاب. وبينها وبين بسكرة يتوقف الحجاج عند خلوة عبد الرحمان الأخضري – صاحب السلم المرونق– وقرية مليلة ، حيث بات ركب سنة (35) 1709 / 1121. واعتاد ركب الحاج الناصري أن يقضي ببسكرة أحيانا يومين على الأقل . وقد دخلها الركب، في حجة الشيخ أحمد الخليفة الرابعة (1122 / 1121) عصر السبت 23رجب / 17 شتنبر 1709. ومن هنا يتجه الركب إلى توزر التي تبعد عن بسكرة بحوالي ثمانية أيام ، وهي قاعدة بلاد الجريد، ومن أول أعمال تونس(36).ومنها إلى قابس يستغرق الركب حوالي ستة أيام. ولما يرتحل من هذه المدينة يقصد طرابلس، التي يصلونها بعد مسير حوالي أسبوعين(37) ، في أحسن الأحوال ، لأن مفازة الفزان، الفاصلة بين المدينتين من أخطر المفاوز، التي يقطعها الركب.

وتعد طرابلس من أكبر المراحل التي ينزلها الحجاج الناصريون، إذ كانوا يقيمون بها مدة أطول. ففي الذهاب لا تتعدى إقامتهم بها أسبوعا ، في المتوسط. أما في الإياب فقد يمكثون بها ما بين أسبوعين وثلاثة أسابيع(38). وقد تزيد المدة أو

تتقص حسب فصول السنة، وأحوال الطرق. واعتادت ركاب الحاج ـ سواء من المغرب أو من غيره أن تلتقي في هذه المدينة، فتقوم حركة نشطة من التبادل، سواء على الصعيد المادي أو المعنوي. علاوة على ذلك ، فإن موقع طرابلس بين مفازتين كبيرتين ، كان الحجاج إذا مروا بإحداها بسلام هنأ بعضهم البعض(39) وقد يجتمع ركبان أحيانا لقطعها. ومن مظاهر الخطر الذي يعانيه الحجاج ، في الطريق الواصلة بين قابس وطرابلس، أن أعراب تلك الجهة كانوا "يقبضون على الناس ويبيعونهم للنصارى"(40) ، على حد تعبير ابن عبد السلام. وبعد مغادرة الركب لطرابلس، يسير محاذيا للساحل ليتوقف بتاجراء، التي تعد أهم مرحلةبالنسبة للركب الناصري ، إذ يوجد بها عدد كبير من تلاميذهم، فيبيتون هناك ليلة على الأقل (41). حتى إذا دخل أرض برقة، حيث تنتهي المفازة، بعد مرسى بنغازي ـ على أن المراحل في تلك الجهة لا تنضبط ، بسبب اختلاف السير، والأزمنة وضيق الوقت واتساعه ـ ويبدأ إقليم الجبل الأخضر ليظهر الخصب ويستبشر الحجاج . ومن المنازل التي تستوقف الركب هناك، قبر الشيخ زروق، الذي كان الحجاج يترددون إليه من أجل الزيارة. وإذا كان الجو ملائما، يتواصل السير حتى يدخل الركب أرض مصر ، فيتنكب عن الإسكندرية، يتركها إلى اليسار، ليخوض غمار صحراء سيوة. وأهم مرحلة في هذه الطريق، قرى كرداسة، حيث يضطر الحجاج إلى بيع رواحلهم، أو إيداعها لدى فلاحي تلك القرى بمقابل ، مع ما يترتب عن ذلك من مشاكل، كما حدث لابن عبد السلام، إذ أودع ثلاث جمال عند شيخ هناك، مقابل واحد وعشرين مثقالا. ولما طلب الناصري وديعته، " زاد عليه الفلاح المصري في الأجرة"، ولم يسلمه الجمال حتى أدى ما طلب منه(42).ومن كرداسة يقصد الحجاج مرسى بولاق ، سيرا على الأقدام. ومنه يعبرون النيل إلى القاهرة(43)، فيمكثون بها مدة، ترتبط بزمن خروج الموكب المصري، الذي يحمل كسوة الكعبة. ويكون خروج"المحمل النبوي" فيما بين خامس عشر شعبان وخامس عشر شوال"(44). وبين القاهرة ومكة المكرمة مسيرة أربعين يوما، تتخللها مراحل كثيرة، أولاها عجرود عند مدينة السويس، ومنها يتوجه بعض الحجاج، ولاسيما الصعاليك، إلى جدة عبر البحر(45). ولعل ظاهرة ركوب البحر إلى جدة، لم تستفحل إلا في القرن الهجري الثالث عشر، لما نسخ الركب البحري الركاب البرية ، على حد تعبير الأستاذ المنوني (46). ومن السويس ، ويسميها الرحالة مدينة القلزوم، يدخل الركب صحراء سيناء، يدعوها البعض التيه بسبب عدم انضباط مسالكها. وهي من أواخر المراحل الصعبة، يقطعها الركب في مدة ستة أيام ، لينتهي إلى العقبة(47) .وبعدها ينعطف الركب نحو الجنوب قاصدا مكة المكرمة، فيتتبع الطريق الساحلية المعروفة بالتهامية. وهي طريق مطروقة منذ القديم، تربط بين غزة وعدن(48)، يقطعها الركب في مدة تنيف عن شهر ، في أحسن الأحوال.

وتجدر الإشارة إلى أن كتاب الرحلات يتفقون على أن الركاب كانت تتوقف عند مراحل معلومة، لأن تلك الطريق منضبطة. ومن أكبر مراحلها أربع، وهي : المويلح والوجه وينبع النخل ورابغ. وتتخللها مراحل صغرى، من الركاب من لا يتوقف عندها ، ومنها من يتوقف مضطرا(49). وبعد أداء مناسك الحج يؤم الركب المدينة المنورة لزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، فيتبع الطريق نفسها: من مكة إلى رابغ ، فمستورة ، فبدر، فالصغراء ، فالروحاء ، فذو الحليفة، ثم أخيرا المدينة. ويقطع هذه المراحل في عشرة أيام(50). وقد اعتاد بعض الحجاج ألا يزوروا المدينة ، فيتفرق الركب إلى فرقتين ، عند بدر، فيبعث قاصدو زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، جل أثقالهم مع الآخرين، ليلتحقوا بهم في ينبع النخل(51). كما اعتادوا أن يدخلوا المدينة المنورة يوم الاثنين ثاني محرم، فيمكثون بها خمسة أيام ويغادرونها بعد صلاة الجمعة، عبر الطريق نفسها، إلى أن يشارفوا بدرا، فيتنكبون عنها يمينا، قاصدين ينبع النخل(52) ، حيث يستريحون يوما أو يومين، ثم يظعن الركب بعد صلاة صبح اليوم الموالي، فيتجه إلى العقبة. وتتقسم هذه المسافة إلى أربع مراحل كبرى(53). ومن العقبة يغرب الركب، ليتوجه صوب عجرود، فيقسمها إلى ثماني مراحل وللإشارة فإن الطريق من ينبع إلى القاهرة منضبطة المسالك في الذهاب والإياب(54). وعند دخول مصر يختص الركب الناصري باستقبال رائع ، يشارك فيه المغاربة المقيمون بالقاهرة، وأمراء الجندوكثير من أعيان البلد (55). وكان الركب الناصري غالبا ما يدخل القاهرة خلال العشر الأوائل من شهر صفر، فيبعث الحجاج برواحلهم وبعض أثقالهم مع الجمالين إلى كرداسة، في انتظار اللحاق بهم ، بعد قضاء مختلف مآربهم وأوطارهم.

وكان من عادة الناصريين أن ينزلوا بقرب مشهد الحسين، بدور يهيؤها لهم بعض المغاربة، مثل الحاج محمد الشرايبي ، الذي كان مقيما بالقاهرة. وغالبا ما كانت إقامة الركب الناصري ، خلال حجات أحمد الخليفة الأربع تناهز الشهر(56). وبعد ذلك يعبر الركب نهر النيل، فينزل بقرية أمبابة، ليجتمع الحجاج.من أجل ذلك يضطرون إلى قضاء حوالي أسبوع في انتظار أن يلتحق الكل بالموكب، لينطلقوا بعد صلاة الصبح، قاصدين الإسكندرية(57). وتتقسم هذه المسافة إلى خمس محطات كبرى، يقطعها الركب فيما يزيد عن عشرة أيام. وقد يقيم بالإسكندرية يومين أو ثلاثة ، يزور الحجاج خلالها أضرحة بعض الأعلام ، مثل أحمد زروق والطرطوشي وابن الحاجب وغيرهم(58).

ويظهر أن سبب مرور الركب الناصري بالإسكندرية راجع إلى وجود جماعة من تلاميذ الناصريين ، كان الشيخ أحمد الخليفة قد قدم عليهم ، في أثناء حجته الرابعة، الحاج محمد الناضوري(59). وبعد الإسكندرية تتزايد الأهوال ، وتشتد المشاق، ولاسيما أن الطريق التالية تعد أكبر مفازة يقطعها الركب. وتمتد إلى

برقة، تبلغ مسافتها مسيرة شهر كامل. وكان الحجاج ينزعجون منها أشد الانزعاج لما يصل الركب إلى طرابلس، يتلقى أعيان البلد شيخ الناصريين بالترحاب، فيستضيفه بعضهم، كما فعل محمد بن أحمد المكني، مفتي طرابلس، في أثناء حجة الشيخ سنة 1710 /1122. بل لقد التقى هذا الأخير بوالي البلد، وبعض كبار رجال الدولة. فبالغ هؤلاء في قضاء بعض مآرب الحجاج، حتى إن والي طرابلس أمر من يقف للبحث عن بعض ما سرق لأحد الحجاج (60) . وكان الحجاج يعيرون لهذه المدينة أهمية بالغة، لأنهم يكترون منها الرواحل، ويجاعلون الأدلاء والجمالين، كما يشترون منها كثيرا من الزاد. لذلك فبفور حلول الركب بها ، يشتغل هؤلاء بكل ما يقيم أودهم، فيبيعون ما حملوه من سلع، ويبحثون عما يحتاجون إليه. لذلك كله فقد تطول إقامتهم بها، لتتعدى أحيانا خمسة عشر يوما. واعتاد بعض أهل طرابلس، ولاسيما علماء المالكية وتلاميذ الناصريين أن يشيعوا الركب طوال مرحلة أو مرحلتين(61). ومن طرابلس يشد الحجاج الرحال، لعبور مفازة نفزاوة، وهي أيضا من الصحاري المعطشة ، متوجهين إلى قابس، التي يصلها الركب بعد حوالي عشرة أيام من السير الحثيث (ليلا ونهارا). وبقابس يقيم الحجاج، عادة يومين للاستراحة، والبحث عن جمالين جدد ، لأن الجمالين الذين يرافقون الركب من مصر، قد اعتادوا أن يرجعوا مع الركب التونسي، الذي يكون في أثناء وصول الركب الناصري إلى قابس، في حالة تأهب للتشريق(62).

ويبدو أن الطريقة الناصرية قد دخلت مبكرا إلى طرابلس. فقد كان من عادة أهل هذه المدينة ، أن يشيعوا ركب الناصريين إلى حامة مطماطة، منذ سنة 1665 / 1076. ولم يكن أهل هذه المرحلة أقل كلفا بالناصريين ، من أهل المرحلة السابقة. فقد كان بها عدد من التلاميذ الناصريين، على رأسهم مقدم يدعى عبد الله بن أحمد المخزومي، الذي لم يكن يألو جهدا في إكرام الركب، ومساعدة الحجاج لإيجاد الأدلاء والجمالين(63). ومن حامة مطماطة، يجد الركب السير، ليلقي عصا التسيار بحامة توزر، وهي قاعدة بلاد الجريد، حيث كانت للركب دار ينزلها شيوخ الناصريين(64) . وبهذه الدار يتوافد عليهم تلاميذهم لأخذ الورد، أو تجديد العهد كما تحمل إليهم الهدايا وأواني الطعام. وكان سكان المراحل التالية يبالغون في إكرام ركب الحاج الناصري ، حتى إن أحد سكان قرية أم الخير ، كان يدعى " أبا الأضياف"، لأنه كان يحب الحجاج ويتلقاهم بالبشر والضيافة، ويلح عليهم لينزلوا عنده(65). وبعد استراحة يوم، يظعن الركب متوجها إلى بسكرة، حيث يقضي الحجاج ثلاثة أيام في الراحة، استعدادا لعبور المفازة الكبرى. فيجتمع أعيان الركب"ليستخبر الناس شأن الطريق"، ولاسيما الماء وحالة المسالك(66).

وهنا لابد من الإشارة إلى أن المسافة بين بسكرة وفكيك، غالبا ما كانت تنتابها بعض التغييرات. فعلاوة على ما كان الحجاج يعانونه إزاء قطاع الطرق واللصوص، فإن الصحراء الكبرى كانت تشهد عواصف مطرية عنيفة ، في فصل

الصيف، الأمر الذي يترتب عنه فيضان الأودية الصحراوية. فكان ذلك يدعو الحجاج إلى التباحث طويلا، لمعرفة أحوال الطريق، قبل خوض غمارها. ومن خلال كتب الرحلات يتبين أن الحجاج كانوا يلاقون عنتا كبيرا أثناء قطع تلك المسافة. مثلا، ففي أثناء قفول الركب من حجة 1710 / 1122، صادف ذلك زمن الصيف. ففاضت الأودية، الأمر الذي حال دون مواصلتهم السير بانتظام، كما اضطروا إلى التنكب جنوبا لينحرفوا عن الطريق المعتادة، مما عرضهم إلى مكابدة الحرارة الشديدة، وطول المسافة، والمرور بقرى ومداشر لا يحظون فيها بالاحترام الذي تعودوه. وفعلا فقد أرغموا على المرور بواحات الأغواط ، التي كان سكانها منشغلين "بالفتن وسفك الدماء ونهب الأموال"(67). فعانى الحجاج من ذلك معاناة شديدة ، الشيء الذي أرغمهم على التنكب عنها، ومواصلة السير ، بدون استراحة بحثا عن موطن آمن(68).

ونتيجة لتلك الظروف أيضا مروا بعين ماضي ، على الرغم من أن الركاب اعتادت أن تتحاشاها في أثناء الإياب، بسبب طول المسافة. لكن ركب الناصريين كان يحظى بعناية خاصة لدى أهل تلك الواحات، فيتلقونهم بالترحاب، ويعدون لهم منزلا خارج البلد ، ويستضيفونهم حوالي ثلاثة أيام. وقد تمت الإشارة إلى أن الركاب كانت تلتقي بهذه المرحلة ، فيستخبر كل ركب عن الجهة التي يقصدها. فإذا كان المشرق يستخبر عن أحوال الطريق، والأسعار بالمحطات الكبرى، وظروف الحج والمناسك في تلك السنة، فإن المغرب يسأل عن أخبار الأهل وحال البلد. ومن هذه المرحلة يبعث شيوخ الناصريين بالرسائل قصد إخبار أهلهم وذويهم بالقدوم(69). وبعد الاستراحة ، يواصل الركب مسيره ، متنكبا ذات اليمين. ومن المراحل التي كان سكانها يراعون الناصريين أهل قرية أبي سمغون، حيث كان بها بعض محبي الناصريين .ومن أبي سمغون يغادر الركب حجاج توات وكورارة(70).

وبسبب وعورة مسالك المراحل التالية، يضطر الحجاج إلى تقسيمها إلى مراحل صغرى، ولم يكونوا يتوقفون إلا لقضاء الصلاة أو لاستراحة ضرورية حتى يصلوا إلى فكيك .وهنا ينزل الركب بـ"منزل الحاج، بقرب دار الإمارة" حيث يتلقاه أهل البلد بالكرم وحسن الضيافة والفرح. وكيف لا يلاقى بهذه العناية، وقد كان للناصريين هناك أتباع، على رأسهم مقدم يرعى شؤونهم. كما كانت لهم مصاهرة مع بعض أهلها(71). ومن فكيك يتنكب الركب نحو الجنوب الغربي، ليتوقف بالتوميات، التي كانت بها أيضا دار للناصريين ، ينزلونها كلما مروا بتلك المرحلة(72). ومنها إلى عين بني مغيل ، ثم بشار، فالقنادسة، حيث كان للناصريين عدد من الأتباع. منهم من يلاقيهم بالبشر والضيافة، ومنهم من يرافقهم ليشيعهم إلى المرحلة الموالية. ثم يواصل الركب طريقه، لا يتوقف إلا لضرورة ما، حتى يصل إلى تلغمت حيث يضرب مخيما، ليبيت بها ليلة، ويتلقى تهاني بعض أهل المحبة الذين يتوافدون عليهم هناك. وفي اليوم الموالي يتوجه شيخ الناصريين إلى تافلالت،

لزيارة شيخ الطريقة أبي القاسم الغازي(73). وهنا يتلقاه السكان فيكرمونه ومرافقيه. وبعد نيل الأوطار يظعن الركب لقطع ما بقي من المراحل. ولما يصل مرحلة"العطشانة" يبرد الشيخ الناصري إلى أهله بريدا، ليبشرهم بيوم الوصول وليتهيئوا لضيافة الركب، ويهيئوا للحجاج ما يكفيهم "من طعام وعلف"(74). وللإشارة فقط، نذكر أن الركب حين يصل إلى "تزي ـ ن ـ تافلالت ، ينفصل عنه قسم من الحجاج ليقصدوا ترناتة ، بينما يتوجه الآخرون إلى تامكروت ، التي وصلها الشيخ أحمد الخليفة مرجعه من حجته الرابعة ، عصر الأربعاء خامس رمضان 1122 / ثاني عشر أكتوبر 1709 (75). فخيم خارج الزاوية ب"الأندر ليقوب المزار" (76). ولم يدخلها إلا يوم الخميس، حين الإسفار. وأول مكان نزل به كان هو المسجد ، حيث جلس حتى صلى الضحى ، ثم خرج منه ليزور قبر والده ويدخل منزله.

وهكذا يكون الركب قد قطع حوالي أحد عشر ألف كلم ، ليعود إلى منطلقه. بعد هذه الرحلة الطويلة التي مر الحجاج خلالها بعدد من المدن ، والقرى والمداشر، وعبروا مجالات قبائل مختلفة الطباع والتقاليد والعادات ، الأمر الذي استوقفهم أحيانا ، فتدخلوا لتغيير المنكر ، أو توسطوا بين الناس بالمعروف ، نعود إلى محاولة الجواب عن التساؤلات التي سبق أن وضعناها في بدء هذا الحديث. وأول ما ينبغي أن يستوقفنا هو أثر الركب الناصري في "المجتمعات" التي يمر بها ، في طريقه إلى الحج. لا يجادل أحد في أن التصوف كان أحد أنجع الوسائل التي انتظمت شعوبا وقبائل في سلسلة متماسكة الحلقات ، ولاسيما إذا كان شعاره التمسك بالسنة ، وتجاوز المذهبية ، مثلما هو حال شيوخ الناصريين(77).

ركب الحاج زاوية متنقلة :

حافظ شيوخ الناصريين ، من رأس الطائفة إلى يوسف بن محمد الكبير (ت 1197)، على الأقل ، على نفس المنهاج الصوفي. وتمسكوا بنشر طريقتهم في الحضر والسفر. وعن طريق ركب الحاج انتشرت الطريقة الناصرية في كثير من بلدان العالم الإسلامي. وقد تمت الإشارة إلى أن شيوخ الناصريين عنوا عناية خاصة بتلقين الأوراد لكثير من سكان المدن والقرى والمداشر التي كانوا يمرون بها. بل لم يكونوا يترددون في تقديم النقباء والتفويض إليهم ، ليسهروا على نشر الطريقة ورعايتها.

وإذا حاولنا أن نؤرخ لانتشار الطريقة الناصرية بطريق ركب الحاج ، فيمكن بدء الحديث من سنة 1665 / 1076 ، أثناء حجة الشيخ محمد بن ناصر الثانية حيث عقد هذا الشيخ محبة مع كثير من السكان الذين يمر بهم الركب ، وخاصة في تونس وطرابلس والقاهرة. يشير الحسن اليوسي إلى أن المشارقة كانوا يأخذون عن شيخه محمد بن ناصر في أثناء حجته ، الورد ويدونون السنة والزمان

والمكان(78).أما في عهد ابنه الشيخ أحمد الخليفة، فقد تطور الأمر إلى تعيين المقدمين. وتذكر المصادر أنه " أعطى الإذن" لكثير من الناس، نذكر منهم محمد الأخصاصي بالمدينة المنورة، ومحمد بن منصور السفطي بمصر، والحاج عيسى بن خليفة ببرقة ، وعلي بن عبد الصادق بطرابلس، وعبد الله المجدوب بحمة قابس(79). وإذا علمنا أن طريق الركب كانت تمر بجهات ظلت هامشية، بالنسبة للسلطات التركية الحاكمة، وكان سكانها متروكين لأنفسهم ، فقد نقدر مدى ما كان متصوفة الناصريين يضطلعون به من أجل تقويم سلوك أولئك السكان. فبالإضافة إلى تدخلاتهم في أثناء رحلاتهم ، لبث التربية الصوفية، فقد استطاعوا أن ينشئوا "خلايا"، على طول طريق ركب الحاج، نذكر منها في المغرب الأوسط تلمسان ووهران وقسنطينة، وقرية جلال، وأم الخير وبسكرة وسيدي خالد. وفي تونس حامة مطماطة، وتوزر وقابس وصفاقس. أما في ليبيا فقد اشتهر أتباع الناصريين وزواياهم في طرابلس، وتاجوراء ومسراتة وبرقة ...وفي مصر استأثرت القاهرة بالنصيب الأوفر من الأتباع(80). وبما أن الطريقة الناصرية قد تميزت ببساطة أورادها، وقوة تعاليمها ولاسيما التفتح على سائر المذاهب ، فقد أقبل مختلف الناس على الانخراط في سلكها. فقامت تلك الخلايا بالاضطلاع بنفس الأدوار التي قامت بها أم الزوايا(81). هذا علاوة على ما امتاز به شيوخها من مكارم الأخلاق والعلم والصلاح ، الأمر الذي خولهم الاحترام والتقدير لدى سكان تلك البلدان. وعمل أولئك الشيوخ كل ما في وسعهم لدعوة الناس إلى اتباع السنة وترك البدع. وتصدوا إلى محاربة العادات والتقاليد الفاسدة. من ذلك مثلا :

1 ــ السماع الذي استعمله بعض المتصوفة.

2 ــ الاختلاط بين النساء والرجال .

فبصدد المسألة الأولى ، لما وصل الشيخ محمد بن ناصر ، في أثناء حجته الأولى إلى طرابلس، وجد جماعة من أتباع شيخ صوفي يستعملون السماع بالدف، فبعث إليهم من يأمرهم بترك تلك العادة، "وإلا اعتزلوا عن أصحابه ، ولم يزل بهم حتى تركوا السماع"(82). وأما بصدد المسألة الثانية فقد انتقد الشيخ أحمد الخليفة، في أثناء حجته عام 1685 / 1096، ظاهرة اختلاط النساء بالرجال في أسواق عين ماضي. فقد كان نساء تلك الواحات تتاجرن مع الحجاج وهن سافرات. فأنكر الشيخ ذلك عليهن ، وتقدم إليهن باللوم العنيف(83). وقد أبدى أحمد الهشتوكي مواقف مشابهة من نساء قرية سيدي خالد(84). ولم يخف أبو مدين الدرعي، انزعاجه من ظاهرة سفور المرأة ، وتبرجها واختلاطها بالرجال، في بعض مراحل الطريق(85). كما لاقى الحجاج كثيرا من العنت ، بسبب وجود قطاع الطرق في بعض مراحل الطريق.

3 ــ التلصص وقطع الطرق .

سبقت الإشارة إلى أن الحجاج كانوا يعانون مـــن اللصــوص، الذيــن كــانوا يعترضون سبلهم ، في بعض مراحل طريق الحج. في هذا السياق نشــير إلــى أن معاناة الحجاج تبدأ انطلاقا من المراحل الأولى. فقد كانت بعــض قبــائل جنوبــي المغرب الأوسط تسطو على الحجاج وتنهبهم. منها قبيلة السليمة، غربي بسكرة التي أمرها الشيخ أحمد بن ناصر بالكف عن تلك الأعمال، فانكفت، وبرهنت على توبتــها فأجبرت بعض من سرقوا ، على رد المسروق لصاحبه. ولم يقف أمرهم عند هــذا الحد، بل صاروا من بين الذين يقدمون مختلف الخدمات للركب الناصري ، فمنحـوا الحجاج الأدلاء والخفراء مجانا(86). كما كانت حامة مطماطة من أكثر جهات البـلاد التونسية ، التي شاع بين سكانها تعاطي السرقة والنهب، حتى إن كثيرا من الحجــاج ، قد اشتبكوا مع البدو من سكانها، في معارك اســتعمل فيــها الطرفــان الأسـلحة النارية(87). وعانى الركب الذي شارك فيه أبو مدين الدرعــي، عــام 1743 / 1156 معاناة مريرة من اللصوص، في كثير من مراحل الطريق الممتدة ، مــن المغــرب الأوسط حتى حدود مصر. فلم يكن قد جاوز أولى المراحــل مــن بــلاد المغــرب الأوسط حتى بدأت المواجهة بين الحجاج واللصــوص. وفــي ذلــك يقــول أبــو مدين:"ولما صلينا العشاء الأخيرة، تداعت علينا اللصوص تداعي الذئاب، وتختطـف اختطاف الثعالب. فلم نزل معهم بالبارود والصياح حتى الصباح..."(88).

لكن بفضل تأسيس فرع للزاوية الناصرية هناك، تراجع أولئك الأعــراب عــن إذاية الحجاج(89) ، حيث تصدى مقدمها لقطاع الطرق بالموعظة، والنهي عن تلــك الأعمال الخبيثة. ويذكر ابن عبد السلام أن عقب ذلك المقدم، مــايزالون متمســكين بالطريقة الناصرية، ماضين على سنن الناصريين ، حتى عام 1782 / 1196. بـل إن بعضهم قد تلقن عنه الورد(90). ويعدد المصدر نفسه زوايا الناصريين التــي ظلــت قائمة العين والأثر، بمختلف المنازل التي توقف بــها ذلــك الشــيخ، فــي حجتــه المذكورة. فبقرية سيدي خالد ، أضحت الزاوية الناصرية منزلا رسميا للحجــاج(91). ولأهل قرية جلال ، في المغرب الأوسط أيضا "كمال محبة" في الشيخ ابن نــاصر. وبسيدي عقبة زاوية ناصرية، ما تزال قائمة، نوه ابن عبد السلام بكثرة أتباعـها(92). وبجبال أوراس ، كان محبو الناصريين وأتباعهم يواظبون علــى قــراءة "سـيف النصر"، صباحا ومساءا، على عادة الناصريين بتامكروت(93). ولعل هذا اســتمرار لعادة قديمة، حيث كان الشيخ أحمد بن ناصر قد أجاز بعض أهل تلك الجهات فــي قصيدتي " سيف النصر" و"الوسيلة"(94) . وكذلك كان الحال في بعض مدن وقــرى بلاد الزاب، مثل بسكرة وأم الخير ومليلة وغيرها(95). ومــن أقــدم المــدن التــي وصلتها الطريقة الناصرية في تونس، مدينة صفاقس ، التي انتقلت إليها ، على يــد المدعو علي النوري. فقد أخذ هذا الأخير الورد عن الشــيخ محمــد بــن نــاصر بالقاهرة، عام 1665 /1076 (96).

وتبوأ الناصريون حظوة كبيرة لدى سكان طرابلس، حتى كان الركب يمكث مدة طويلة ، قد تنيف عن الشهر، كما حدث في أثناء توجه الشيخ أحمد الخليفة لأداء حجته الثانية ، سنة 1685 / 1096 (97). ومن مظاهر تلك الحظوة ـ التي نتجت عن انخراط كثير من أولئك السكان في سلك الطريقة الناصرية ـ ما كان يلاقيه الركب الناصري من كرم الضيافة ، والعناية طوال مختلف الرحلات. ولم يكن الأمر قصرا على فئة من السكان، بل كان عامة الناس يلاقونهم بالبشر ويكنون إليهم الاحترام، كما كان صدور القوم يعتنون بهم ، ويترددون إليهم. وفي هذا السياق استضاف مفتي المدينة الشيخ أحمد الخليفة ، وجاء والي البلد و"ذو السلطنة الدولاتي" لزيارته، واستمعا إلى بعض شكاواه(98).

وكان هذا ديدن سكان مختلف المنازل والمراحل الواقعة في طريق ركب الحجاج. فبالجبل الأخضر اشتهر"أولاد سيدي ناصر،من أهل سرت"، باتباع الطريقة الناصرية (99) . وببرقة عدد كبير من الأتباع، قدم عليهم الشيخ الناصري ، رجلا منهم يدعى ، عبد الرحمان عمارة. وبالإسكندرية،ومكة المكرمة، والمدينة المنورة تلاميذ ناصريون يتعدون الحصر. ويلخص أحمد بن خالد الناصري مكانة شيخ الناصريين وانتشار طريقته في تلك البلدان، فيقول :"وحاصله أنه ما مر بقرية أو بلدة إلا وتسابق إليه أهلها بالهدايا والترحيب والإكرام، وأخذ عنه العهد والورد الجم الغفير من أهل تلك البلاد ، وقدم عليهم النقباء واستنابهم في تلقين الأوراد..."(100).

يتضح مما ذكر أن الطريقة الناصرية قد تغلغلت في كثير من المراحل والمنازل، التي يمر بها ركب الحاج الناصري. فترتب عن ذلك(توثيق أواصر المحبة بين الناصريين وتلاميذهم ومريديهم(101). وأضحى هؤلاء بمثابة صلة وصل متينة بين الناصريين ، وبين سكان تلك البلدان. بل لقد نسجت عن طريق هؤلاء وشائج تقارب قوية بين سكان الشمال الإفريقي عامة ، أسهم فيها متصوفة الناصريين . ويمكن أن نستشف من ذلك كله دعوة مضمرة إلى التماسك والوحدة ليس فقط بين بلدان الشمال الإفريقي ، ولكن فيما بين مختلف جهات العالم العربي. وهذا ما دفع البعض إلى أن يستنتج ـ مع ما في ذلك من تمحل ـ أن هدف الناصريين هو خلق طائفة واحدة ، هي نفسها الأمة الإسلامية(102). وأيا ما كان فإن مقدمي الناصريين قد دأبوا ـ في الجهات التي نشأت بها تلك الخلايا ـ على أن يكونوا بمثابة الملاذ الذي يقصده الأفراد والجماعات ، مستجيرين من نهب "الأعراب" وتلصصهم ، بل لعلهم أضحوا ملاذا لسكان تلك الجهات ، حتى من جور بعض أولي الأمر من الولاة الأتراك ، الذين اشتطوا أحيانا في مجال الجبايات(103) فكان ذلك سببا في توسط الناصريين حكاما في الخلافات والنزاعات، التي تقع بين مختلف الأطراف. وبذلك تمهدت السبل أمام الحجاج ، بما كان سكان تلك الجهات يقدمونه لهم من خدمات، لأن كثيرا من المسالك لا تنضبط إلا بصعوبة كبيرة

بسبب انعدام الأمن والعواصف المطرية ، والرملية، ولاسيما في صحاري المغـرب الأوسط و"سبخات" بلاد الجريد ، ومفازات الفـزان وبرقـة(104) .

الوساطة والتحكيم:

لم يقتصر دور شيوخ الناصريين ومقدميهم على محاربـة ظواهـر السـلب والنهب ، وقطع الطرق، والتصدي للعادات والتقاليد المنحرفة ، حيـث كـان لـهذه الأمور ما يبررها، كسواد عدم الاستقرار والفقر، وتتالي القحوط والأوبئة ، في تلـك الجهات ، علاوة على بعدها عن مراكز الإشعاع الثقافي ، بل تدخلوا للتحكيـم فـي الخصومات، وتوسطوا بين المتقاتلين ، وانتصفوا للمظلومين. ونستحضر ، في هـذا المقام ، عدة أمثلة منها :

فيما يتعلق بالنزاعات بين القبائل ، توسط الشيخ أحمد بن ناصر ، بأبي سـمغون ، بين ثلاث قبائل متناحرة ، كان القتال بينها متواصلا طوال أجيال خلت. ولما ندبـها إلى الصلح لم تتلكأ أية واحدة منها عن الاستجابة إلى طلبه. وليجعل ذلك الصلـح نافذا، أمرها بالتعهد كتابة بالالتزام به. وليقف الشيخ علـى تنفيـذ الصلـح، حـرر مقتضياته كتابة ، وأعطى كل فريق نسـخة منـه ...، ولإبـراز بعـض مظـاهر المصالحة، لم يغادر الشيخ المنطقة إلا بعد أن شاهد الناس يتبادلون الضيافة ويلاقـي بعضهم البعض. يقول بصدد ذلك :"فتوافوا وتضايقوا إتماما للعقـدة وتـأكيدا لـها وزيادة في إشاعتها ... وإزالة الضغن والشحناء..."(105).

وقد تمت الإشارة إلى التدخل الذي قام به الشيخ نفسه لدى قبيلة السـليمة ، لفسـح المجال أمام الحجاج، والكف عن إذايتهم(106). وفي سنة 1154/1741 توسط أبو مدين الدرعي بين أولاد سيدي عبد الجبار ــ غربي بسكرة ــ الذين تقاتلوا بسبب خـلاف حول أرض زراعية. فكان تحكيمه ناجعا ، إذ التزم الفرقاء بمقتضيات الصلح التـي ارتضاها لهم ذلك الشيخ(107). وإذا كانت تلك القبائل استجابت لوساطة النـاصريين ، فيمكن أن يستدل بذلك على المكانة المرموقة التي تبوأها هؤلاء لديها، علمـا أنـها كانت تحكي حياة هامشية ، بالنسبة للسلطة المركزية. ولم يكتف شيوخ النـاصريين بفض النزاعات ، وإقرار الأمن بين السكان، بل توسطوا حتى بين الحكام وبعـض الخارجين عن طاعتهم. ومن أمثلة ذلك وساطة الشيخ أحمد الخليفة بيـن السـلطان المولى إسماعيل ، وابن أخيه أحمد بن الحفيد، الذي أعلن العصيـان فـي المنطقـة الشرقية. فاستطاع الشيخ أن يحسم الخلاف بين الرجلين ، ويصلح ذات بينهما(108).

ومما تجدر الإشارة إليه ــ في هذا المقام ــ أن الشيخ الناصري قد استنكر شـروط الصلح التي انعقدت بين الفرنسيين والوالي التركي ، علـى إثـر القصـف الـذي تعرضت إليه مدينة طرابلس من قبل الأسطول الفرنسي ، سـنة 1096/1685 (109). فعمد الشيخ إلى حث علماء المدينة على التوسط لدى الحاكم التركي لإقناعه برفـض تلك الشروط المهينة، ولاسيما الغرامة المالية الثقيلة(110) ، في وقـت كـان أولئـك

العلماء قد غادروا المدينة ، ليتلافوا تزكية موقف الوالي التركي. ويظهر أن ملابسات هذا الحدث تدعوا إلى تفصيل القول عنه. ففي أثناء رحلة الشيخ أحمد الخليفة الحجية الثانية ، على رأس ركبه ــ في السنة المذكورة ــ وجد مدينة طرابلس محاصرة من قبل الأسطول الفرنسي ، المكون من اثنتين وعشرين سفينة(111). فما راعه إلا أن رأى سكان المدينة ــ بما فيهم العلماء والحكام ــ قد أبدوا الجبن والخوف، وأقدم كثير منهم على الفرار إلى الضواحي. وبعد أن بدل قصارى جهده لتحريضهم على المرابطة والجهاد، لم يستجب إليه إلا عدد قليل لأن معظم الناس هالهم ما رأوا من تفوق الفرنسيين (112).فقد عمد هؤلاء إلى قصف المدينة بكثافة ، قلما شهدها أولئك الناس، كما يتبين من هذا الوصف :"فإذا وقعت (أي القذيفة) يسمع لها صوت هائل تصم منه الآذان ، فتتصدع في الموقع الذي سقطت فيه وتتفرق، ولا تقع على بناء إلا وهدته، ولا على بسيط مستو إلا حفرته ولا على أسطونة إلا وهدتها، ولا على شجرة إلا أحرقتها ..."(113) وحتى يضرب لهم المثل ، تزعم أعمال الجهاد ، مع من صمدوا ، للدفاع عن المدينة. وعلى الرغم من تفوق الفرنسيين ، وقرب الحجاج المغاربة من أهداف الرمي، وكثافة القصف فقد تصدى الشيخ وأتباعه للحراسة الليلية(114). فما وهنوا وما استكانوا "بل لقد شمروا على ساعد الجد لبذل النفس والاستشهاد، حتى كتب كل وصيته ، وأعد الشهادة مغنما وفواتها مغرما..."(115) والملحظ الأساس أن موقف الحجاج الناصريين ظل ثابتا. حتى إذا انعقد الصلح بين الوالي التركي والفرنسيين ، فإنهم لم يلتزموا بشروط الصلح ، لأنها ــ في نظرهم ــ مهينة للمسلمين (116). ولما بدأ الفرنسيون يترددون إلى المدينة ، بأثر ذلك ، فإن الحجاج الناصريين لم يهادنوهم بل استمروا يناصبونهم العداء ، كما يتضح من كلام الشيخ أحمد الخليفة ، حين قال : " وأما المغاربة ، وجميع الحجيج ، فغلظوا على الكفرة، وأخشنوا لهم في القول وربما ضربوهم ، ولا ألقوا إليه (أي والي البلد) بالا ، إعزازا لدين الله ..."(117).

ولم يترك الحجاج المغاربة أي سبب لمدافعة الأعداء إلا أخذوا به. من أجل ذلك أنهم لما تبينوا رد فعل الحاكم التركي السلبي ، اهتبلوا الغرة لدى العلماء ولاسيما المالكين منهم. فعمدوا إلى تحريضهم ضد المسؤول الأعلى على المدينةوتعبئتهم لإرغامه إلى رفض شروط الصلح. لكن ذلك لم يزد هؤلاء العلماء إلا صدودا ، حيث انتبذوا خارج المدينة(118).

إن هذا النصب الذي تجشمه الحجاج المغاربة ، أثناء قف مدينة طرابلس ، وما بذلوا من جهد لرفع الذلة عن سكانها، لا يدل إلا على أن الشعور بالوحدة بين المسلمين كان قد اختزل المسافات ،وتجاوز التمايز العرقي. وكان ذلك أيضا ، أحد مظاهر الوشائج القوية التي ظلت تنتظم مختلف الشعوب الإسلامية ، طوال التاريخ ....وإذا كان الحجاج المغاربة قد عبروا بعفوية عما تفرضه الروابط الدينية ، والأخوة

الإسلامية ، فإن أواصر العلم والتعليم جاءت لترسخ ذلك التضامن ، الذي فرضه ظرف عابر، بشكل عميق ومستمر.

الجانب العلمي في ركب الحاج الناصري:

تمت الإشارة إلى أن شيوخ الناصريين قد حظوا بالتقدير والاحترام لدى سكان القرى والمدن التي كانوا يمرون عليها. فتعلق بهم العلماء والطلبة أينما حلوا وارتحلوا(119). وإذا كان هؤلاء الشيوخ قد جمعوا بين التصوف والعلم ، فلا غرابة أن يكون ركب الحاج بمثابة مدرسة متنقلة، عقد العلماء والطلبة خلالها، حلقات علمية أثناء إقامتهم وظعنهم(120). فكانوا يتناظرون ويتذاكرون، ومنهم من يتابع دروسا منتظمة، "فيختم" في الرحلة كراسات وكتبا، قد "يسلكها" عدة مرات(120) .ففي سياق حديث أبي سالم العياشي عن مداومة الشيخ محمد بن ناصر على التدريس، يقول:"وكان الشيخ في سفره هذا (حجة 1070) وفي غيره،لا يخل بدرس العلم وإقراء المتون ، وإملاء الفنون ..."(122). وذلك ما يزكيه بالمعايشة الحسين بن ناصر ، صنو الشيخ المذكور ــ الذي كان هذا من جملة شيوخه ــ حين يقول "ختمت على الشيخ الأخ الشقيق شمس المعارف سيدي محمد بن ناصر خليل بن إسحاق ست مرات، ثلاث بأغلان عام ثلاث وخمسين وأربع وخمسين، وختمة فيما بين مصر وطرابلس الغرب وبسكرة النخل عام سبعين، وختمتان فيما بين ذلك عام ستة وسبعين وسبعة وسبعين ، والتسهيل كذلك، ثلاثا بالبلد واثنان كذلك ..."(123). واستجاز العلماء الناصريون وطلبتهم بعض كبار العلماء المشارقة ــ فأجازوهم. ومن أمثال هؤلاء، محمد البقري(124) بمصر، وعبد بن سالم البصري(125)، بمكة المكرمة، والملا إبراهيم بن الحسن الكوراني(126)، بالمدينة المنورة. وكما استجاز الناصريون هؤلاء العلماء، فقد أجازوهم بدورهم. من ذلك مثلا ، أن أحمد الخليفة وأخاه عبد الله قد أخذا عن العالمين أحمد ومحمد ابني قاسم البقري بمصر. وأثبت محمد المكي الناصري نص الإجازة في كتابه فتح الملك الناصر(127). وتبادل الشيخ أحمد الخليفة وإبراهيم الكوراني الإجازة، فأجاز كل منهما الآخر(128). ولم يكتف الناصريون بالتلقي، بل تصدوا بدورهم للتدريس، ولاسيما بمصر، حيث كان ركب الحاج يقيم مدة طويلة ، تتراوح بين شهر وشهرين ، فيعقد العلماء حلقات علمية يحضرها طلبة العلم، من أجل التحصيل والمناظرة.ومن بين من اقتعدوا كراسي التدريس بالجامع الأزهر عبد المالك التاجموعتي، وأحمد الهشتوكي اللذين أجازا طلبة وعلماء من مصر ومن غيرها(129).وأقام محمد الصغير الورزازي الناصري بمصر، مدة ، فاشتغل بالتدريس، حتى توفي هنالك ، سنة 1727 / 1139 (130).وإذا كان الشيخ أحمد بن ناصر، لم يتصدر للتدريس، فقد أجاز بعض الطلبة والعلماء بكل من المدينة المنورة، ومصر(131). وظل حبل التواصل ممدودا بين العلماء، في كل من المغرب ومصر ــ على الأقل ــ في عهد الشيخ يوسف

الناصري (1197 / 1157) (132). واستمرت هذه العلائق نشطة حتى مستهل القرن الهجري الثالث عشر/ 19م ، على الأقل ، وهو التاريخ الذي سجل بدء تراجع ركب الحاج الناصري. ولعل أبرز من عمل على استمرار العلائق الثقافية حية ، بين المشرق والمغرب عالمان ، هما : الشيخ محمد بن عبد السلام الناصري ، وعلي بن سليمان الدمنتي. أما محمد بن عبد السلام فقد حرص في أثناء حجته عام 1196/ على جمع عدد من الإجازات. منها إجازة القاضي أبو بكر بن أحمد بن تامر "عوف بقنون"، نزيل قابس(133)، الذي أجاز معه أحمد بن الحسن بن علي حفيد الشيخ محمد بن ناصر. وتاريخ الإجازة منتصف شعبان عام 1196 (134). وبطرابلس تردد عليه كثير من الطلبة لأخذ العلم ، وطلب الإجازة(135). وأشار في رحلته إلى أن الشيخ يوسف الناصري كان قد أعطى العهد لكثير من الناس ، بالمدينة المذكورة(136). وقدم بعض سكان قرية الشيخ أحمد زروق، على ابن عبد السلام، ليطلبوا منه تجديد العهد ، فاستجاب لرغبتهم(137). وكان ذلك ديدنه طوال الطريق إلى الحج .

ولعل أبرز من وثق العلائق بين المشرق والمغرب ، عبر ركب الحاج ، كان هما الشيخين ابن عبد السلام ومرتضى الزبيدي. فبالإضافة إلى الصحبة العلمية التي كانت بين هذين الشيخين ، كانت تصلهما وشائج روحية متينة. نقل الكتاني من كناشة ابن عبد السلام رسالة تفيد أن الزبيدي طلبه فيها ، أن يتوسط له لدى علماء المغرب ليجيزوه(138). كما كان ابن عبد السلام من المغاربة الذين يروون عن الزبيدي .ولذلك فقد أجازه وعم بالإجازة كل الناصريين ، فقال :"وكذا أجزنا كل من تأهل لحمل هذا الفن من طلبة العلم بالزاوية الناصرية(139). وأما علي بن سليمان الدمنتي (1306 – 1234)، فقد أتى على أسانيده المشرقية ، في فهرسته " أجلى مسانيد علي الرحمان في أعلى أسانيد علي بن سليمان "، حيث ذكر العلماء المشارقة الذين امتدت إليهم أسانيده. منهم حسن العدوي المصري ، ويوسف الحنبلي شيخ الحنابلة بمصر، ومفتي الحنابلة بمكة، محمد بن عبد الله بن حميد الشرقي(140) وعبد الغني الدهلوي ، بالمدينة المنورة(141). وإذا كان ابن عبد السلام رجل علم وتصوف، فإن عليا بن سليمان زاد عليه بالتأليف والعمل ، لتوثيق الصلات بين المغرب وبقية العالم الإسلامي. يتضح ذلك من الرسالة الجريئة التي كتب بها إلى "الآفاق"(142)، وإقدامه على طبع كثير من مصنفاته بمصر(143).

يقول الأستاذ أحمد التوفيق، بصدد هذه الرسالة :" كتب البوجمعوي رسالته من موقع الالتزام بالناصرية ، وانطلاقا من اقتناعه بأنها النموذج الأمثل للطريقة الجامعة بين الشريعة والحقيقة ، لا على مستوى المغرب فحسب ، بل على مستوى البلاد المشرقية التي كان ملما بأحوالها"(144). ذلك أن هذه الرسالة قد دعت ــ من بين ما دعت إليه ــ إلى تجاوز الخلافات المذهبية ، وإعادة النظر في أحوال المسلمين. لاشك في أن البوجمعوي كان يستحضر الأزمة العامة التي كانت الدول الإسلامية

تتخبط فيها ، وامتداد أيدي الأجانب إلى بعض الأراضي الإسلامية. كما أن هزيمة المغرب في حرب تطوان ، لم يكن قد طواها النسيان(145).
ومهما كان الأمر ، فإن ركب الحاج الناصري لم يقتصر على نقل الأفكار ، وتبادل الإجازات ، ورفع الأسانيد، بل تجاوز ذلك إلى نقل المصنفات والكتب النفيسة. ولاريب في أن نقل الكتب ، كان أكثر أهمية ، ولاسيما قبل ظهور الطباعة، وذيوع الصحافة، في غضون النصف الثاني من القرن الثالث عشر/19 . تذكر الرواية الشفهية المتواترة عند الناصريين ، أن الشيخ محمد بن ناصر ، كان يصحب معه في أثناء رحلتيه الحجيتين عددا من التلاميذ. وكلما عثر على كتاب نفيس ، إلا واستعاره ليوزع كراريسه عليهم. ثم يأمرهم بنسخه، ليحمله إلى تامكروت. وبهذه الوسيلة انتقل إلى الزاوية عدد كبير من الكتب. وفي عهد ابنه أحمد الخليفة تضاعفت مقتنيات دار الكتب بما جلب إليها من المشرق. منها جل مصنفات ابن الأجدابي(146). ولما زار هذا الشيخ القاهرة في حجته الأخيرة ، اشترى عددا من الكتب(147). وفي الوقت ذاته اقترض مبلغا ماليا كبيرا ، أنفقه كله في اقتناء الكتب(148). وأضاف عبد الحي الكتاني ، بصدد المناسبة نفسها ، أن هذا الشيخ أنفق مائة مثقال ذهبي في شراء الكتب(149). ومن التحف التي جلبها الشيخ أحمد الخليفة إلى المغرب، النسخة اليونينية من صحيح البخاري ، اشتراها من مكة المكرمة بثمانين دينارا ذهبا(150).

يمكن أن نستخلص مما سبق أن ركب الحاج الناصري ، قد ساهم في فسح الطريق أمام الحجاج، وتمهيدها ، حيث تبارى مقدمو الناصريين وأتباعهم ، في توفير مختلف الشروط لإنجاح الرحلات لأداء فريضة الحج. وبذلك كون هؤلاء كلهم ، جسورا قوية وصلت الناصريين وسكان كثير من المدن والقرى والمداشر الواقعة على طريق الركب.

وقد تمت الإشارة إلى أن تلك الجهات ، التي اشتهرت بسيادة الترحال وعدم الاستقرار، قد عرفت تحولات كبيرة بسبب تدخلات الناصريين. فقد أسهم هؤلاء في تعليم السكان وتربيتهم، حتى إن تأثير الحجاج كان واضحا في بعض أنماط عيش أولائك السكان، وطرق كسبهم ، الأمر الذي أصبحت معه بعض المنازل مرتبطة في إنتاجها وكسب عيشها ، بالحركة التجارية التي ساهمت فيها الركاب، بنصيب وافر. كما أسهم احتكاك الحجاج بأولئك السكان ، في ترسيخ بعض تعاليم الإسلام التي كانوا يجهلونها، وتخلوا عن كثير من العادات والتقاليد الفاسدة التي طالما أضرت بدينهم ودنياهم...وهكذا، فبالإضافة إلى الأواصر الصوفية التي امتدت بين الناصريين وسكان تلك الجهات، فقد عمل التواصل العلمي على توثيقها، فتبادل الحجاج معهم الفتاوى، والقصائد الشعرية ، والرسائل والإجازات، وانتقلت بواسطتهم كتب وأسانيد ، وطرق تعليمية. فترتب عن ذلك كله اتصال وثيق بين الجانبين وأسهم في صقل المواهب وتوسيع المدارك، ومهد لتفاعل فكري بين

المغرب والمشرق، ولاسيما إبان المحن التي تعرضت إليها بلدان الشمال الإفريقي حين وقعت تحت نير الاستعمار الأوربي.

ركب الحاج مجتمع متنقل :

كان الركب بمثابة مجتمع مكون من مختلف الشرائح الاجتماعية. وقد ألمحنا إلى وجود تراتب يتطلبه الجانب التنظيمي ، حيث نجد أمير الركب وقاضيه و"مجلس الركب". وبما أن الركب غير رسمي ــ لا يتدخل فيه المخزن ــ فقد يكون مضطرا إلى مجاعلة الأدلاء(151)، لاجتياز بعض المفاوز، حيث تتعذر معرفة الطريق. كما كان يلجأ إلى كراء الخفراء المسلحين للتصدي إلى هجمات البدو. وإلى جانب هؤلاء يصاحب الركب أناس يتكلفون بضرب الطبول. يقومون بذلك للإعلان عن الإقامة ، وأوقات الظعن ، والاستعداد لمواصلة السفر(152). كما يرافق الركب عدد من المؤذنين وإمام للصلاة. ويصطحب الشيخ الناصري ، عادة ، بعض العلماء ، من أساتيذ الزاوية وتلاميذها الكبار، وبعض طلبة العلم. ويظهر في مختلف الركاب ، عادة ، ثلاث فئات اجتماعية هي :

أ ــ أعيان الحجاج ، وتتكون هذه الفئة من الشرفاء والتجار وذوي الحيثيات .

ب ــ صعاليك الحجاج ، وهم ذوو الفاقة والبسطاء ، الذين يرافقون الركب لتقديم بعض الخدمات في أثناء الطريق.

ج ــ العبيد والخدم ، الذين يصطحبهم الشيخ الناصري ، وبعض أعيان الحجاج .

وإذا كان "مجلس الركب" يمثل القبائل ، ويتدخل للنظر في بعض المشاكل التي تطرأ بين الحجاج ، فإن "شورى الركب" كانت بأيدي أعيانه ، الذين يقومون بفض مختلف القضايا. ومن الأمثلة التي نود سوقها، في هذا المقام ، ما نستفيده من كلام الشيخ أحمد الخليفة ، حين استشكل أمر الطريق ، في مفازة برقة ، فقال :"وجمعنا أعيان الركب لنستخبر ما عندهم ، وما عليه جلهم ، وما هو الأصلح لهم . واتفق رأيهم ، بعد مراجعة في الكلام ومراسلة ، ومناقبة فيه ومواصلة ، أن يتوجهوا منكبين طريق سلوك"(153) . نفهم من هذا أن حسم الأمر قد تطلب عقد جلسة تخللها الأخذ والرد والنقاش للتباحث في تلك النازلة.

وقد سبقت الإشارة إلى أن أولئك الأعيان ، عقدوا مجلسا آخر ، لما اعترضت طريقهم فيضانات بعض أودية الصحراء، قبل أن يتنكبوا ذات اليسار، للمرور عبر واحات عين ماضي. أي أن الأعيان، هم الذين كانوا يقررون فيما يستوقف الركب من النوازل ، طوال الطريق ، وأنهم تبعا لذلك ، كانوا بمثابة السلطة العليا ، في ركب الحاج(154).

هذا عن "مجتمع الركب"، أما فيما يختص بحياة الحجاج ، طوال الرحلة ، فقد استمرت فيها مختلف المظاهر. فقد ظل الحجاج متمسكين بكل الممارسات اليومية التي يعيشونها زمن الاستقرار ، من تقاليد واحتفالات ومآتم ... وهكذا فبالإضافة

إلى تلقي العلم وتلقينه ،والتجارة وتبادل النقود وصرفها ، احتفل الحجاج بالزفاف والعقيقة ، ومنهم من توفي في أثناء الطريق. من ذلك أن المدعو علي بن أحمد الرسموكي قد عقد قرانه بصفية بنت علي بن عبد العزيز البوعنانية، في بداية الرحلة ، ودخل بها بعد أن جاوز ركب سنة 1685 / 1095. وحملت منه ، وما يزال معها كذلك حتى المدينة المنورة(155). وفي أثناء عودة الركب الناصري من حجة سنة 1710 / 1122" ، أخذ الطلق إحدى مملوكات "الشيخ أحمد الخليفة. فوضعت ولدا ذكرا، عند حلول الركب بوادي الخفشة. فأقام له الشيخ وليمة العقيقة، في اليوم السابع من ميلاده(156). وهذا ما يؤكد أن كثيرا من الحجاج ــ ولاسيما أعيانهم ــ كانوا يصحبون معهم نساءهم ، وسراريهم ، وبعض أطفالهم.

وخلاصة القول فإن الزاوية الناصرية قد مثلت حضورا متميزا في المجتمع سواء على صعيد المغرب ــ بمدنه وقراه ، ومداشره ــ أو على صعيد البلدان الإسلامية ، التي يمر عليها ركب الحاج الناصري.وظل شيوخها يعملون على ترسيخ تعاليم طريقتهم، في الظعن والإقامة، الأمر الذي أسهم في توثيق الصلات عن طريق انتقال الأفكار والأسانيد والكتب، وبعض طرق التدريس ، بين المشرق والمغرب. وقد اضطلع الناصريون ، في كل ذلك ــ سواء شيوخا أو مقدمين أو أتباعا ــ بالدور الرئيس ، وحظوا بمكانة رفيعة لدى سكان تلك البلدان.

وعلى الرغم من الصعوبات التي كانت تعترض سبيل ركب الحاج الناصري في بعض مراحل الطريق، فقد استطاع الشيوخ الناصريون تذليلها، بفضل التنظيم المحكم الذي تواضعوا عليه ، سواء بجعل الركب زاوية متنقلة ، تضطلع بمختلف أدوارها المعهودة ــ من ذكر ووساطة وتعليم وأمر بمعروف ونهي عن منكر ــ أو بالحرص على استمرار مختلف مظاهر الحياة ، في المنشط والمكره.

الهوامش

1) ــ الدرر المرصعة .. ، ص : 357 وطلعة المشتري .. ، 1/167.

2) ــ محمد المنوني : من " حديث الركب المغربي ".

3) ــ فقد حج معه جماعة من أهل درعة وسوس وجبال الأطلس ، علاوة على أخيه وجماعة من أولادهما وأصحابهما. إتحاف المعاصر ، نسخة تانغملت ، ص : 19.

4) ــ طلعة المشتري ، ص : 19.

5) ــ م. س. ن.

6) ــ أحمد ابن ناصر : الرحلة الناصرية ، طبعة حجرية ، فاس 1320 ، الجزء الأول ، ص :.65

7) ــ م.س.ن.

8) ـــ رسالة من السلطان المولى إسماعيل إلى الشيخ أحمد الخليفة ، أثبتها أحمد الهشتوكي ، هداية الملك العـــلام . ص : 45 والرحلة الناصرية 1/5 .

9) ـــ طلعة المشتري ،2/28 و61 ورحلة أحزي ، ص : 57.

10) ـــ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"اللهم بارك لأمتي في بكورها" ويضيفون "يوم الخميس".

11) ـــ أبو مدين الدرعي : الرحلة. م.خع. ق 297 ، ص : .51

12) ـــ م . س. ن.

13) ـــ نقله الأستاذ محمد المنوني : من حديث الركب المغربي ... ص : .95

14) ـــ أبو سالم العياشي : الرحلة (ماء الموائد) طبعة بالأوفسيط بعناية الأستاذ محمد حجي .

15) ـــ الرحلة الناصرية : .54 / 1

16) ـــ الدرة الجليلة ... ص : .21

17) ـــ رحلة الهشتوكي . ص : .87

18) ـــ الدرة الجليلة ... الدراسة ، ص :.54

19) ـــ الرحلة الناصرية .1/26

20) ـــ م.س. ص : .27

21) ـــ يوافق شهر رجب من عام 1095 ، يونيو من سنة .1684

22) ـــ الرحلة الناصرية .2/165 ونقله الخليفتي ، الترجمة.96

23) ـــ أسيف أزاغ عبارة عن واد موسمي يصب في واد دادس.

24) ـــ الرحلة الناصرية ، وابن عبد السلام : الرحلة الكبرى. ص : .35 وأبو مدين الدرعي : الرحلة، ص:.57

25) ـــ الرحلة الناصرية .211

26) ـــ م. س .2/196 . ورحلة ابن عبد السلام ، ص :.62

27) ـــ الرحلة الناصرية.2/188 ورحلة ابن عبد السلام. ص :.64 والدرة الجليلة . ص : .238

28) ـــ الرحلة الناصرية .2/192 الدرة الجليلة. ص : .237

29) ـــ أبو مدين الدرعي : الرحلة . ص : .62

30) ـــ الرحلة الناصرية : م.س.ن . ورحلة ابن عبد السلام ، ص : .68 — 67

31) ـــ م.س. ص: 73 —70.وأبو مدين الدرعي : رحلة ، ص :.62

32) ـــ م.س. ص : .63 وابن عبد السلام ، ص :.75 — 74

33) ـــ م.س.ص :.66 وابن عبد السلام . ص :.77

34) ـــ ابن عبد السلام . ص :.80

35) ـــ أحمد بن ناصر : الرحلة ، م . س ..1/37

36) ـــ م. س.ص : 52.

37) ـــ م.س.ص : 59.

38) ـــم.س.ص:.59

39) ـــ أبو مدين الدرعي : الرحلة ، ص :77، وابن عبد السلام : الرحلة الكبرى ، ص :.141

40) ـــ م.س. ص : .142

41) ـــ الخليفتي : الدرة الجليلة ، ص :236 – 234 ، نقلا عن الرحلة الناصرية ، 76 – 75 / 1.

42) ـــ ابن عبد السلام : الرحلة ، ص : .188

43) ـــ م.س. ص : .188 – 186 وأبو مدين الدرعي : رحلة ، ص : .93

44) ـــ م.س. ص : .193 - 190

45) ـــ م.س. ص : .194

46) ـــ المنوني : من حديث الركب ، ص :

47) ـــ أبو مدين الدرعي : الرحلة، ص : 109 – 104 ، وأحمد بن ناصر ، الرحلة .159 – 158 / 1

48) ـــ د. حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام ، الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة ، الطبعة الأولى 1407/1987، ص :59، خريطة رقم .35

49) ـــ أحمد بن ناصر : الرحلة الناصرية ، .187 – 154 /1

50) ـــم.س ، ن ..6-2/1

51) ـــ م.س.ن. ص : .4

52) ـــ م.س.ن ، ص : .105 - 101

53) ـــ م.س . ص : .156 - 101

54) ـــ م.س.ن.

55) ـــ م.س. ص : .110

56) ـــ ولنا عودة لتفصيل الحديث عن بعض جوانب نشاط الحجاج المغاربة بالديار المصرية .

57) ـــ م.س. .112 – 2/111

58) ـــ م.س.ن ، ص : .134

59) ـــ م.س.ن ، ص : .119

60) ـــ م.س. ص: .147

61) ـــ م.س.ن ، ص : .151

62) ـــ م. ن .س، ص : .162 - 152

63) ـــ م.س.ن ، ص : .168 - 164

64) ـــ م.ن.س ، ص : .169

65) ـــ م.ن.س. ص : .177

66) ـــ م.ن.س ، ص : .180 – 179

67) ـــ م.س.ن ، ص : .184

68) ــ م.ن.س ، ص : 185.

69) م.س.ن ، ص : 186.

70) ــ م.س.ن ، ص : 188.

71) ــ م.س.ن ، ص : 192.

72) ــ م.س.ن ، ص : 193.

73) ــ م.س.ن ، ص : 196.

74) ــ م.س.ن ، ص : 198.

75) ــ م.س.ن.

76) ــ الخليفتي : الدرة الجليلة ، م . س. ص : 183.

77) ــ وتر عن الشيخ محمد بن ناصر أنه كان يقول :"ما علمت حديثا من أحاديث رسول الله (صلعم) إلا عملت بــه ولو مرة

واحدة ، وإن كان مخالفا لمذهب الإمام مالك :"الدرر المرصعة ، م.س. ص:.354

78) ــ الحسن اليوسي : المحاضرات ، تحقيق الأستاذين محمد حجي وأحمد الشرقاوي إقبال ، بيروت .1.1982/175

79) ــ الرحلة الناصرية : م.س..2/194

80) ــ م.س.ن. وأبو مدين الدرعي : الرحلة ، وابن عبد السلام : الرحلة الكبرى ، في صفحات متفرقة.

81) ــ محمد ماكمان : أدب الرحلات ... رسالة د.د.ع في الأدب ، مرقونة ، الرباط ،.1031.1986

82) ــ أبو سالم عبد الله العياشي : الرحلة ،(ماء الموائد) ، طبعة بالأوفسيط بعناية محمد حجي ، الرباط ،.961.1977

83) ــ الرحلة الناصرية ، م.س..1/32

84) ــ المشتوكي : هداية الملك العلام ، م.س. ص: 140.

85) ــ أبو مدين الدرعي : الرحلة ، م.س. ص : 66.

86) ــ الرحلة الناصرية ، م.س.ن.

87) ــ ماكمان : أدب الرحلات ، م.س . 360.

88) ــ أبو مدين الدرعي : الرحلة ،م.س. ص : 61.

89) ــ الرحلة الناصرية ، م.س..2/168

90) ــ ابن عبد السلام : الرحلة الكبرى ،م.س. ص : 103-107.

91) ــ م.س. ص :.89

92) ــ م.س.ن. ص : 93 – 83

93) ــ م.س.ن. ص : 96.

94) ــ قصيدتان من نظم الشيخ محمد بن ناصر.

95) ــ أحمد بن ناصر : الرحلة الناصرية ،.51 – 27 / 1

96) ــ أحمد بن خالد الناصري : طلعة المشتري ،م.س..2/69

97) ــ أحمد بن ناصر : الرحلة ،م.ن.س ، 1/68.

98) ــ م.س. 2/147.

99) ــ م.ن.س ، ص : 141.

100) ــ طلعة المشتري ،م.س ،.2/93

101) ــ أحمد الهشتوكي : هداية الملك العلام ، م.س.ص : 123.

102)ــ Michaux-Bellaire : Conférences sur les confréries religieuses du Maroc. in Archives Marocaines. Vol .27 .1917 , p : 221.

103) ــ الحسين بن محمد الورثيلاني : نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار ، صححه محمد بـــن أبي شـــنب. بيروت ، الطبعة

الثانية ، 1974، ص : 88 – 89. (الرحلة الورثيلانية ، فيما يأتي من الإحالات).

104) ــ الرحلة الناصرية ، في صفحات متفرقة.

105) ــ الرحلة الناصرية ..2/168 والدرة الجليلة . الترجمة 1.

106) ــ الرحلة الناصرية ..2/181

107) ــ أبو مدين الدرعي : الرحلة . ص : 61.

108) ــ م.س.ن..2/189

109) ــ م.س.ن.

110) ــ م.س.ن.

111) ــ الرحلة الناصرية ..1/65

112) ــ م.س.ن.

113) ــ م.س.ن.

114) ــ محمد بن موسى الناصري : الدرر المرصعة...م.س. ترجمة أحمد بن ناصر والرحلة الورثيلانيـــة ، ص : 152. وقد نيف عدد القذائف التي سقطت على المدينة ــ في إحدى الليالي ــ عن ألف.

115) ــ طلعة المشتري ..م.س..2/30

116) ــ الرحلة الناصرية ،م.س. 1/66.

117) ــ م.س.ن.

118) ــ م.س.ن.

119) ــ الهشتوكي : الرحلة ،م.س. ص : 123.

120) ــ الرحلة الناصرية ،1/119 و2/174 والدرة الجليلة ، التراجم 1 و3 و8 .

121) ــ الرحلة الناصرية ،1/140-141 و 208-190 و2/42-44 . والدرة الجليلة ، الترجمتان 1 و30.

122) ــ أبو سالم العياشي : الرحلة ،م.س. 1/96 وطلعة المشتري ،م.س..2/168

123) ــ الحسين بن ناصر : فهرسة ، نسخة علي الريسوني ، شفشاون ص : 1.

124) ـــ فقيه شافعي ، مقرئ مصري ، توفي عام 1111/1699. الزركلي : الأعلام ،.7/7

125) ـــ عبد الله بن سالم بن محمد بن سالم بن عيسى البصري منشأ ، المكي مولدا، فقيه شافعي ، من كبار علماء الحديث توفي بمكة المكرمة سنة 1134. القادري : التقاط الدرر ،م.س. ص : .435 الكتاني : فهرس الفهارس.م.س ، .2/155 الزركلي : الأعلام ،.4/88

126) ـــ إبراهيم بن حسن بن شهاب الدين الشهرزوري ، الكوراني ، أبو إسحاق ، فقيه شافعي ، من علماء الحديث ، له مؤلفات عديدة. كان مجاورا بالمدينة المنورة وبها توفي سنة .1101/1690 الدرر المرصعة ، ترجمة أحمد الخليفة . الرحلة العياشية ،م.س..1/320 والتقاط الدرر ص.255 وطلعة المشتري ، .2/36 وفهرس الفهارس 1/295 ،رضا كحالة : معجم، م.س..1/21

127) ـــ فتح الملك الناصر في مرويات بني ناصر ، ص : 239 ، والدرة الجليلة ، ص :.147-146

128) ـــ الرحلة الناصرية ،2/43 ، الدرر المرصعة ، ترجمة، أحمد الخليفة . وطلعة المشتري ،.2/36

129) ـــ الهشتوكي : رحلة . ص :.246-244

130) ـــ الدرة الجليلة ، ص :.211/212

131) ـــ م.س.ن.

132) ـــ رسالة من مصطفى بن صاف المصري إلى الشيخ يوسف الناصري ، بتاريخ 8 جمادى الأولى عام 1165، رسالة ضمن مجموع رقم 3202 خزانة تامكروت.

133) ـــ محمد بن عبد السلام : الرحلة الكبرى . ص :.131

134) ـــ م.س.ن. ص :.132

135) ـــ م.س.ن.ص:.147

136) ـــ م.س.ن. ص:.159

137) ـــ م.س.ن.ص :.170

138) ـــ الرسالة مؤرخة في يوم الخميس 16 ربيع عام 1197. نقلها الكتاني : فهرس، .537-1/536

139) ـــ م.س.ن. .1/540

140) ـــ م.س.ن ،.1/177

141) ـــ م.س.ن..2/762

142) ـــ أحمد التوفيق : أبو الحسن علي بن سليمان الدمنتي البوجمعوي ورسالته إلى الآفاق. بحث نشر في "في النهضة والتراكم". دراسات في تاريخ المغرب والنهضة العربية ، مهداة إلى الأستاذ محمد المنوني . المعرفة التاريخية الدار البيضاء 1986 ، ص: .257

143) ـــ أحصى الأستاذ أحمد التوفيق عشرة مصنفات طبعت كلها بالمطبعة الوهبية بمصر . ثبت مؤلفات البوجمعوي ، م.س.ن ، ص :.265 — 260

144) ـــ م.س.ن ، ص : .267

145) ـــ م.س.ن ، ص : .269

146) ـــ الرحلة الناصرية ،م.س ..1/71

147) ـــ م.س. .2/110

148) ـــ ابن عبد السلام : المزايا ، ص :.17

149) ـــ نقله المنوني: دليل مخطوطات ، ص : .29

150) ـــ المنوني : معلمة المغرب ،1089 :4. والمنوني : دعوة الحق /91 . ص : .147

151) ـــ الرحلة الناصرية ، .2/125

152) ـــ م.س.ن..2/125

153) ـــ م.س.ن. .2/132

154) ـــ م.س.ن..2/185

155) ـــ المشتوكي : هداية الملك العلام ، ص : .97 – 96

156) ـــ الرحلة الناصرية ، .2/130

